موقف جريدة "المبشر" من المقاومة الشعبية في الجزائر (1847 - 1870م)

د. إبراهيم لونيسي
أستاذ محاضر -قسم التاريخ
جامعة جيلالي اليابس -
سيدي بلعباس

تمهيد :

إنّ أبرز ما يميز التاريخ الجزائري منذ بداية الاحتلال الفرنسي إلى غاية نهايات القرن التاسع عشر، هو كثرة الثورات الشعبية التي ظهرت في العديد من مناطق التراب الجزائري فماذا نقصد بها ؟

إنّ المقصود بالثورة هو تحرك شعب ما مستعمر خاضع للقهر والاستغلال ضد القوى الاستعمارية الأجنبية، وهذا التحرك يكون عنيفا، وبشتى الوسائل بهدف استخلاص السلطة من أيدي فئات تفرض أوضاعا جائرة بالنسبة لغالبية الشعب سواء كانت هذه الأوضاع سياسية أو اقتصادية، أو اجتماعية، وسواء كانت الفئة التي تفرض هذه الأوضاع منتمية إلى البلد أو غريبة عنه[1].

والثوارت التي نحن بصدد الحديث عنها في هذه الدراسة هي تلك التي كان يقوم بها الجزائريون ضد السلطة الاستعمارية الفرنسية،

والملاحظ أنّ أسباب هذه الثورات تعددت وتشعبت، خاصة في انطلاقتها الأولى، فهناك ثورات اندلعت لأسباب شخصية، ثم أخذت بعد ذلك أبعادا وطنية واضحة المعالم، وهناك أخرى تعود لأسباب دينية كثورة سكان واحة الزعاطشة سنة 1849، ولكن مهما يكن من طبيعة أسباب قيامها، فإنّ كلّ هذه الثورات كان يجمع بينها قاسم مشترك واحد ويتمثل في أنّها كانت ترمي في نهاية الأمر إلى تحقيق هدف سام واحد، وهو القضاء على الوجود الفرنسي في الجزائر، والعمل على استرجاع السيادة الوطنية التي اغتصبت سنة 1830م.

كما أنّ الدارس لهذه الثورات بشكل مفصل يجدها تتميز في معظمها بالمحلية الضيقة في بدايتها على الأقل، ثم تبدأ في التوسع في المناطق المجاورة للمنطقة التي اندلعت منها الشرارة الأولى، ولكن لم تنجح أي ثورة من هذه الثورات في أن تشمل وتعمّ جميع أرجاء القطر الجزائري، وربّما يعود ذلك إلى سوء التحضير والارتجال.

ونودّ الإشارة هنا إلى أنّنا لن نقوم بدارسة وتحليل أسباب قيام هذه الثورات وعوامل انتشارها أو فشلها، بل نعمد إلى تسليط الأضواء على هذه الثورات من خلال إحدى الوسائل التي اعتمدت عليها الإدارة الفرنسية للقضاء على هوية الشعب الجزائري ومعالم شخصيته، عن طريق إتّباع أساليب التخدير والتنويم. وهذه الوسيلة يمكن القول عنها أنّ خطورتها كانت لا تقل أيدا عن الوسيلة العسكرية إن لم نقل أنّها أخطر منها، ألاّ وهي الصحافة التي قال

عنها فوليتر (1694 -1778) "إنّها الآلة التي لا نستطيع تحطيمها بل هي التي تستمر في تحطيم العالم القديم حتى تكون على أنقاضه عالما أخر جديدا"[2]. والجريدة التي سنحاول النظر من خلالها إلى هذه الثورات هي جريدة "المبشر".

التعريف بجريدة المبشر

بعد مرور سبعة عشر سنة من الاحتلال الفرنسي للجزائر، اكتشفت فرنسا أهمية إصدار جريدة موجهة للجزائريين وناطقة باللغة العربية، لهذا وجدناها تقوم بذلك خلال سنة 1847، حيث قام الملك لويس فيليب بإصدار مرسوم بذلك، وقد بادر الجنرال دوماس إلى تطبيقه خلال شهر سبتمبر 1847، حيث صدر أول عدد من الجريدة في 15 سبتمبر 1847، وظلت هذه الجريدة تصدر إلى غاية 1929.

إنّ هذه الجريدة لم تكن تصدر باللغة العربية، بل كانت موادها تكتب أصلا باللغة الفرنسية ثم تترجم إلى اللغة العربية، وكانت الإدارة الفرنسية تسعى إلى تحقيق جملة من الأهداف من وراء إصدارها لهذه الجريدة أبرزها إيصال قراراتها وقوانينها إلى الأهالي وجعلها مفهومة عندهم، وكذا التحدث إلى الجزائريين بلغة يفهمونها للتأثير عليهم. وذلك من خلال ذكر أخبار العمالات الثلاث الجزائر ووهران وقسنطينة حيث كانت تخصص لكلّ عمالة حيزا من صفحاتها وكانت معظمها تدور حول التعيينات في سلك الموظفين التي كانت تقوم بها الإدارة الاستعمارية كما تتحدث عن أخبار

الحرب والحصاد، ووضع الضرائب والغرامات المختلفة للدولة، وتعلن عن أيّام سفر المراكب بين موانئ تونس وعنابة والجزائر ودلس ووهران، كما كانت تتحدث عن الثورات الشعبية التي كانت تحدث في هذه العمالات، والتي كانت نتعتها بالفتن.

دور جريدة المبشر في تحطيم معنويات الجزائريين

إنّ الدارس لمختلف أعداد "المبشر" خلال ا لفترة المدروسة يجدها غنية بأخبار الثورات الشعبية التي قام بها الأهالي، خاصة في الفترة ما بين (1847 -1858)، فالجريدة تعد بحق مصدرا هاما لا يمكن لأي باحث الاستغناء عنه في الكتابة عن المقاومة الشعبية الجزائرية خلال القرن التاسع عشر، فكيف نظرة الجريدة لهذه الثورات وكيف عالجت أحداثها ؟ وماهي الأهداف التي سعت إلى تحقيقها من وراء ذلك ؟

لقد كانت "المبشر" تعكس بصورة مباشرة موقف الإدارة الاستعمارية من الثوارت والانتفاضات الشعبية باعتبار أنّ "المبشر" هي لسان حال الحكومة العامة في الجزائر الموجه للأهالي.

لقد كانت تنظر إليها على أنّها فتن وأعمال (قبيحة)، وتسمي قادتها بأهل الفساد و(الشيطنة) وتقول عنهم أنّهم يخادعون الأهالي في أعمالهم وتصرفاتهم تلك، وتلصق بهم شتى التهم، وتصفهم بأوصاف كثيرة، فهم في نظرها مفسدون، ويزعمون أنّ اللّه هو الذي بعثهم ويسمون أنفسهم مرابطين وأشرافا، و"المبشر" ترى أنّ

مهمتهم الحقيقية هي التنقل عبر مختلف أنحاء إقليم الجزائر لإفساد عقول العباد. لهذا كانت تحذر الأهالي من سوء نوايا هؤلاء (المفسدين) وخبثهم.

وكانت المبشر تقول عنهم بأنّهم عديموا الأصل مثل بوعود، و بوسيف وبومعزة، وبوناموس وبوبغلة. وتقول أنّ كلّ واحد من هؤلاء يزعم أنّه مبعوث من عند الله بكرامات ظاهرة، من ذلك أنّ أحدهم زعم (الخوض في نار الوغى ولا يُرَى) أي أنّه يقاتل دون أن يراه أي أحد. والثاني يزعم أنّ له سيفا بضرب به العدّو على مسافة الرصاص، والآخر زعم خروج جند الناموس من تخوم الأرض بأمره ويرسله على جيش العدّو وغيرها.... من الخرافات الكاذبة[3].

ولكن إذا صدقت كلّ هذه الإدعاءات التي كان يروجها بعض الثوار والتي تتحدث عنها "المبشر" والتي جاءت في بعض المصادر الفرنسية. فإنّ هناك سؤالا ينبغي طرحه وهو لماذا لجأوا إلى هذا الأسلوب بدون شك فإنّهم كانوا يهدفون إلى رفع معنويات الشعب والتحميس للجهاد، ودفع الناس إلى التمرد والثورة ضد المحتل الفرنسي، وحتى لا يستسلم الشعب للإدعاءات التي كانت تروجها وسائل الدعاية الاستعمارية من أنّ الوجود الفرنسي في الجزائر قضاء وقدر.

وإذا نظرنا إلى خطب الحكام العامين الذين تولوا حكم الجزائر خلال هذه الفترة، فإنّنا نجد تطابقا كبيرا بين ما تكتبه الجريدة، وما كان يرد في خطب هؤلاء الحكام، فمثلا عندما ثم

تنصيب الجنرال "هوتبول" حاكما عاما يوم 4 نوفمبر 1850 ألقى خطابا على الأهالي جاء فيه : "...لا تنصتوا لكلام الوُشات (كذا) الذين مرادهم خروجكم عن سيرة هذه الطريقة المستقيمة لاتصالهم بمنفعة أنفسهم، ولا يحتاج تذكركم بما حل من الشدايد (كذا) لبعض من فتح أذنيه لمقالة المفسدين سالفا"[4].

ونفس الشيء نجده في خطاب الجنرال (راندون) الذي ألقاه على الأهالي بعد وصوله إلى الجزائر مباشرة كحاكم عام1851 : "وتكرر خطاب من كان قبلنا لكم وهو أن لا تنصتوا لكلام المفسدين المجهولة (كذا) الأصل الذين يسعون في الفتنة ويزعمون عملهم في إصلاح دينكم وهم مشتغلون بمصالحهم فقط..."[5].

وهذه الآراء والأحكام لا نجدها فقط في خطب الحكام العامين بل حتى في خطب الأمبراطور نابليون الثالث نفسه فمثلا عندما زار الجزائر للمرّة الثانية في ماي 1865 قال في إعلانه للأهالي حول هذه الثورات والانتفاضات : "... واخبروا إخوانكم المغرورين بأنّ تكرار سعيهم في النفاق يعود بالنحس عليهم... ونستكثر خير جماعة كثيرة منكم الذين لم يغيروا صدقهم (كذا) بإتباع الآراء الفاسدة من الجهل والتعميق والغلو في الدين..."[6].

فمن هذا كلّه نرى وكأنّ هذه الثورات والانتفاضات تحدث بدون أسباب معلومة، وأنّ هذه الأسباب لا تخرج من إطار المصالح الشخصية للذين يشعلون الثورات، وإلى التعصب الديني وحبّ الفساد

والتخريب عند قادّتها، فطيلة الفترة المدروسة لم أعثر في أي عدد من أعداد المبشر على ذكر لأي سبب من الأسباب الحقيقية التي كانت تؤدي إلى إشعال هذه الثورات والانتفاضات، والتي نجد على رأسها رفض الشعب الجزائري لأي شكل من أشكال السيطرة الأجنبية الغريبة عنهم في كلّ شيء، إلاّ أنّ "المبشر" تحجم عن ذكر هذا السبب وهذا لا نجده فقط في هذه الجريدة، ولا في خطب المسؤولين الفرنسيين بل حتى عند مؤرخي المدرسة الاستعمارية الفرنسية سواء أكانوا قدماء أم محدثين، عسكريين أم مدنيين، إذ أنّهم اتفقوا على أنّ هذه الثورات والانتفاضات لم تكن وطنية تحريرية، وإنّما هي تمردات وفتن نابعة من المصالح الشخصية، والتعصب الديني أو العرقي، فمثلا إذا عدنا إلى كتاب (الأمير عبد القادر من التعصب الإسلامي إلى المواطنة الفرنسية)[7]، للمؤرخ العسكري الجنرال بول آزان فإنّنا سنجده أصدق معبر على هذا الحكم، والعنوان فقط لوحده يعطي لنا معاني كثيرة، فالقارئ له يستشف المقصود منه، وهو أنّ الأمير عبد القادر ما كان ليثور على فرنسا لولا تعصبه الأعمى للدين الإسلامي، وبالتالي فإنّ الإسلام دين تعصب وبأنّ الأمير عبد القادر عندما وضع سلاحه في شهر ديسمبر 1847 أصبح في نظر بول أزان مواطنا مخلصا لفرنسا.

ولقد استعملت الإدارة الاستعمارية (المبشر) كوسيلة هامّة في عملية القضاء على هذه الثورات والانتفاضات، إذ كانت تتبع كلّ ما

له علاقة بهذه الثورات ومن وراء ذلك تسعى إلى بث جملة من الآراء والأفكار في أوساط الأهالي للحطّ من معنوياتهم، ونذكر منها :

1. الوجود الفرنسي في الجزائر قضاء وقدر وكانت "المبشر" تمارس عملية تخويف الأهالي، وتحاول إقناعهم أنّ ثوارتهم هذه ما هي في الحقيقة إلا ثورات ضد إرادة الله، وتدعي أنّ انتصارات الجيش الفرنسي هي انتصارات من عند الله كذلك، وبذلك تحط من عزيمة الإنسان الجزائري وتدفعه إلى الاقتناع بأنّ الانتصار على الجيش الفرنسي مستحيل، وبذلك يركن إلى الخضوع والخنوع، تقول المبشر "لكن عند ظهور عصيانهم ظهر لكم أيضا منظر جيوشنا العديدة يترادفون من كلّ جهة ليزجوا جهالة الطوايف الذين تعاموا عن إرادة الله وحلمه حتى نصبو الحرب على من نصر الله راياته فكفانا قليل من الأيّام في أدغان الطغاة وادخالهم تحت الطاعة"[8]. وأنّ هذه الانتصارات كانت تتحقق كذلك بسبب قوّة الجيش الفرنسي وعظمته، وفي الوقت ذاته تعمل "المبشر" على إظهار الإدارة الفرنسية بمظهر الرحمة والحزن على الذين يسقطون من الأبرياء بسبب هذه الثورات (الفتن) وخاصة وأنّه لا علاقة لهم بما يقوم به هؤلاء (المفسدون) كتبت الجريدة تقول : "ومما كان يزيد في حزننا حلول الموت من غير مرادنا على بعض من ليس له جناية وإثم ذلك (كذا) على أصحاب الشر الذين كانوا سببا لهذه الفتن المكروهة على الناس أجمعين"[9].

وواضح أنّ "المبشر" كانت تقوم بكلّ هذا لتؤثر على الأهالي وتثير الوهن والضعف واليأس في نفوسهم، وبالتالي يستجيبون لمطالب الإدارة المتمثلة في ضرورة قيامهم بطرد الثوار (المفسدين) من بينهم، وإلقاء القبض على من استطاعوا وتسليمهم للإدارة الفرنسية : حيث كتبت الجريدة تقول " ثم فيما جريتم تأديب لكم وإنذار فاطردوا من بينكم أهل الفجور هؤلاء لأنّهم لا يطلبون إلاّ فسادكم بانهدام بنيان الصلح وقواعد خيركم"[10].

ولقد "تمكنت" المبشر من التأثير ولو نسبيا على نفسية بعض الأهالي إذ وجد ذلك الكلام بعض الصدى لدى بعض الأعراش التي قامت بطرد من تسميهم المبشر مفسدين، كما قامت أعراش أخرى بإلقاء القبض على البعض، وتسليمهم للسلطات الفرنسية، وكانت "المبشر" حريصة أشد الحرص على نشر مثل هذه الأخبار بهدف تحطيم معنويات الأهالي وخاصة عندما بتعليقاتها المؤثرة مثل قولها بأنّ الذين قاموا بهذا العمل – أي طرد الثوار أو إلقاء القبض عليهم - إنّما أنقذوا أنفسهم من البلاء والمصائب التي كان من الممكن أن تحلّ بهم لو استمعوا إلى ما كان يرددّه هؤلاء (المفسدون) من مقولات وإنّ الأعراش التي ناصرت هؤلاء واستمعت إلى أقوالهم نزلت بهم كثير من المصائب.

2. حرص الجريدة على نشر الأخبار الخاصة بالعقوبات المسلطة على الأهالي عند فشل كلّ ثورة أو عند انتهاء كلّ معركة. مثل قتل إعداد كبيرة من الأهالي وإحراق الكثير من القوى والمباشر، واتلاف الزرع

وغيرها من هذه الأعمال التي تعتبرها المبشر عقوبات سلطت على هؤلاء بسبب قيامهم بالثورة أو المشاركة فيها، وهذا بهدف بث الخوف والرعب في نفوس الأهالي، وجعلهم يحجمون عن التفكير في القيام أو المشاركة في أي ثورة أخرى.

3. حتى تتمكن المبشر من كسب ود وصداقة الأهالي كانت تنشر بعض الأخبار الدولية الحساسة جدا والتي لها علاقة مباشرة بالعالم الإسلامي، وخاصة النزاعات التي كانت تقف فيها فرنسا إلى جانب الطرق المسلم حتى توهم الأهالي بأنّ السلطات الفرنسية تناصر المسلمين دائما، ولكنّ هذا الإدعاء غير صحيح لأنّ فرنسا كانت تقف دائما إلى جانب الطرف الذي ترى فيه مصالحها الخاصة، ومن أبرز الأحداث التي ركزت عليها المبشر بهذا الصدد، حرب القرم(154-156)[11].

إنّ الشيء الذي يلاحظه الدارس للمقاومة الشعبية الجزائرية من خلال جريدة (المبشر) هو تحاشيها لكتابة أو نشر مقالات تحليلية تتناول فيها مثلا أسباب قيام هذه الثورات وتطوراتها المختلفة وموقف الأهالي والمعمرين الفرنسيين منها، بل كانت تكتفي فقط بعملية السرد لا غير، إلاّ أنّه ولأول مرّة قامت المبشر بنشر مقالة تحليلية حول مقاومة أولاد سيدي الشيخ ونعني بذلك الكلمة التي ألقاها أحد أساتذة المدرسة السلطانية في الجزائر وهو (نيرون)[12] على تلامذة المدرسة ولقد نشرتها المبشر يوم 2 أوت 1864، وهذه الكلمة كلّها

تحامل على الثورة، وقد أرجع الكاتب أسبابها إلى الجهل المتفشي في وسط الكثير من الأهالي.

ويمكن إدراج هذه الكلمة في إطار المحاولات التي كانت تقوم بما فرنسا في المدارس التي كانت تفتحها بحجة نشر الحضارة والعلم، بينما هي في حقيقة أمرها مدارس من أجل غسل مخ الأطفال الجزائريين وأبعادهم عن كلّ ما من شأنه أن يربطهم بوطنهم، وأهمّ ما جاء في هذه الكلمة قول صاحبها : "... أيّها السادّات أنّ في مضى (كذا) هذه الأيّام حدث نفاق بغتة وافق وقوعها تأسفنا لوفاة سعادة الماريشال الأعظم[13] حتى كان ذلك سببا لسفك دماء عساكرنا ولولا مساعدة القضاء والقدر للدولة لتولد الشك من ذلك في تضعضع بلوغها للمقصود الذي عزمت عليه في هذا البر خيرا وهذه البقعة في المدرسة المعفاة من الأشرار وإن لم يلحقها ضرر هذه الفتنة فقد أصاب التلاميذ اهتمام من أجلها وحصل لهم تأسف لانحراف هؤلاء العصاة عن طريق الصواب...إنّ الأعراش الذين يقودهم الجهل للنفاق دون تأمل عواقبه مهما قصد غرورهم الباصلية (كذا) يزعمهم الاجتهاد في الدين" وبعد هذا يخاطب التلاميذ الصغار طالبا منهم الخضوع للإدارة الفرنسية وطاعتها من أجل بناء الحضارة وتحقيق التطور والتقدم : "...واليوم يا أولادنا لنا شيء آخر نؤمله (كذا) وهو التقاء فريقين هنا بهذا الميدان للتفاوت في نيل الجزاء مكافأة لذوي القريحة، والاجتهاد في اكتساب العلوم انظروا ما الفرق المعتبر بين تلك القوم وهؤلاء، فهناك قوم يسعون في أهوال مع اجتهاد في استمرار الجهالة وهنا قوم

مساعدين في عشرتهم بسرور وعافية مجتهدين في اتخاذ العلوم المنورة للعقول والمرشدة للطريق المستقيمة وسيرى ذات يوم بهذه المملكة الجزائرية، اتحاد الإفرنج والعرب..." إلاّ أنّ هذه الأمنية التي تمناها هذا الأستاذ لم تتحقق لأنّ الإنسان الجزائري رفض هذا الاتحاد مع انطلاق أول رصاصة ليلة الفاتح من نوفمبر 1954.

الخاتمة

إنّ الدارس للثوارت الجزائرية خلال القرن التاسع عشر انطلاقا من جريدة "المبشر"، يخرج بفكرة واحدة وهي أنّ الجريدة لعبت دورا هامّا في تشويه هذه الثورات وأساءت كثيرا لزعمائها وهذا ليس بالأمر الغريب لأنّ "المبشر" أصلا أنشئت لخدمة الإدارة الاستعمارية، فهذه الثورات في نظر المبشر لم تقم إلاّ لسبب واحد وهو الرغبة في التخريب والتدمير والإضرار بالأهالي، وذلك بقيام أصحابها بجلب البلاء والهلاك للأهالي بدعوتهم إلى الفتنة.

كما عملت الجريدة على غرس جملة من الأفكار السامّة في عقول بعض الأهالي، منها أنّ هذه الثورات ستضر كثيرا بمصالحهم الاقتصادية، وهذا بخلق حالة الفوضى وعدم الاستقرار في المناطق التي تنتشر فيها هذه الثورات، والهدف من وراء كلّ هذا هو دفع الأهالي إلى النفور من هذه الثورات، وهذا يدفعنا إلى الاعتقاد بأنّ الإدارة الاستعمارية كانت تعتقد، وهكذا يبدو أنّ هذه الثورات كانت تقف وراءها أسباب اقتصادية وإن كانت الجريدة لم تشر إلى ذلك صراحة.

ولكن ما يمكن استنتاجه من كتابات المبشر عن هذه الثورات بدون عناء هو أنّ هذه الثورات كانت تحمل في طياتها طابع الجهاد الديني بما فيها تلك التي انطلقت لأسباب شخصية مثل ثورة أولاد سيدي الشيخ، كما أنّ المرابطين لعبوا دورا أساسيا في تفجير هذه الثورات، وفي تطوراتها المختلفة، لهذا نجد الجريدة تسعى إلى اتهام أصحاب هذه الثورات بالتعصب الديني الأعمى.

كما يستنتج الدارس لمحتويات الجريدة أنّ زعماء الثورات بذلوا جهودا كبيرة في توسيع رقعة ثوراتهم والخروج بها من المنطقة التي اندلعت فيها، ولكن هذه المجهودات كانت تبوء بالفشل لضعف إمكانيات أصحابها وخاصة من حيث العتاد والتدريب على الأعمال القتالية، مقارنة مع الإمكانيات التي كانت تمتلكها القوات الفرنسية التي كانت تبذل كلّ ما في وسعها لمحاصرة الثورات في مناطق ضيقة ليتسنى لها القضاء عليها.

وبشكل عام فإنّ لهذه الثورات قيمة كبرى في تاريخ الجزائر المعاصرة لأنّها تؤكد لنا بأنّ السواد الأعظم من الشعب الجزائري لم يكن أبدا راضيا بالوجود الفرنسي، وإنّ هذا الشعب كان رافضا لكلّ المحاولات التي استهدفت طمس شخصيته العربية الاسلامية، كما أنّها كانت درسا مفيدا لمفجري ثورة الفاتح من نوفمبر 1954.

الإحـالات :

1. الموسوعة العسكرية، الجزء الأول، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر)، ص 121.
2. Actes du 14ème congres international des orientalistes. Alger 1905 (Paris 1907). T3, p 196.
3. جريدة "المبشر" 16 ماي 1851.
4. المصدر نفسه، 15 نوفمبر 1850.
5. المصدر نفسه، 16 جانفي 1851.
6. المصدر نفسه، 12 ماي 1865.
7. Paul Azan : l'Emir Abd El Kader (1808 -1883) du fanatisme au patriotisme française (Paris 192). P 37.
8. المبشر، 15 جوان 1848.
9. المصدر نفسه.
10. المصدر نفسه.
11. إبراهيم لونيسي، "صدى حرب القرم على الرأي العام الجزائري" (المجلة التاريخية المغاربية، مؤسسة التميمي - تونس)، العدد 132، جوان 2008.
12. ذكرت الجريدة أنّه عين في الكوليج الإمبراطوري الذي فتح في قسنطينة بتاريخ 20 ديسمبر 1866، وهو متحصل على إجازة في العلوم الرياضية، وكان مدير المدرسة في مدينة مارسيليا، أنظر جريدة المبشر 24 جانفي 1867.
13. يقصد الماريشال بيبيسي الذي كان عندئذ ماكما عاما على الجزائر.